حكايات غيرت الدنيا

صانع الأمطار



محسن محمد محسن

صانع الأمطار

١

كانَ أيمنُ يستعِدُّ للقِيامِ برِحلة، مع زُملائِهِ في القَرْية، حيث يقضونَ النَّهارَ يَلعبونَ ويَمرحون ، على حافَةِ التُّرعةِ الكبيرة ، عندَ آخِرِ حُقولِ القَرْية .

وكان اليومُ يومًا جميلًا صَحْوا ، من أيَّامِ الرَّبيـعِ الحُلوة .

إذْ هطل المطرُ الغزيرُ فَجْأة ، فصاحَ أيمـنُ ساخِطا :

ــ مطرٌ فى الرَّبيع . ألا لعْنةُ الله علىَ الأمْطار .. لماذا تسقُطُ الأمطارُ أصْلا ؟ فأنا لا أدْرى ما فائدةُ هذهِ الأمْطارِ اللَّعينَة !

تذكَّرَ أيمنُ ما كانَ يَنتَظِرُه من رِحلتِه الجميلَة ،



صَنَعَ هذهِ الأمْطارَ الَّتى تلعَنُها ؟

أجابَ أيمنُ علَى الفوْر :

ـــ أعْلمُ طبْعا .. إنَّهُ السَّحاب .. فماذا فى لَعنِىَ السَّحابَ يا أبى ؟

قالَ والدُه :

ـــ ومَنِ الَّذى صنعَ السَّحابَ يا أيْمَن ؟

أجابَ أيْمن :

ـــ إنَّه بُخارِ الماءِ الَّذى يَتصاعدُ من البِحارِ والأَنهارِ بِفعلِ حَرارَةِ الشَّمس .

ضحِكَ والِدُ أيمَنَ وقال :

ـــ ولوْ فَرضْنا أنَّ الشَّمسَ بخَّرتْ مِياهَ البِحارِ والأَنهار ، ولَمْ تَرجِع إلينا هذهِ المِياهُ فى صُورةِ أَمْطار ، فهلْ تبقَى البِحارُ والأنهارُ على حالِها أو تَنقُص ؟

قال أيْمنُ في سَذاجَة :

ــ وما دَخلُ الأمْطارِ في هذا ؟ فالأنهار تأتى من مَنابِعها ، والبِحارُ تمتلِىءُ بالماءِ الَّذى تصُبُّه فيها هَذه الأنهْار ، وليْسَ لِلأمطارِ دَخلٌ في هذا .

قال والِدُ أيْمَن :

ــ سأُخْبِرُكَ بدَخْلِ الأَمطارِ في هذا عِندما أعودُ من عَمَلى في المَساءِ إنْ شاءَ الله . والآنَ أَرى السُّحُبَ قدِ انْقَشَعتْ ، والأَمطارَ قدْ توقَّفتْ ، وعاد الجَوُّ صحْوًا كما كان ، بل أحْسنَ مِمَّا كان . ويُمكنُك الآنَ أنْ تقومَ بنُزهَتِك الَّتى لَعنْتَ الأمطارَ بِسَبَبِها . ولكنْ دَعْنى أسْأَلكَ قبلَ أن تَذهبَ لِرِحلَتِك : مَنِ الَّذى يَصنعُ الأَمْطار ؟

أجابَ أيْمنُ في سَذا جة :

ــ الشَّمسُ والبِحارُ والأَنهارُ والسَّحاب ، كما

ذكرتُ من قبل .. أَليسَ كذلِك ؟

سأَلَ والِدُ أيْمن :

ــ ومَنِ الَّذى صنعَ كُلَّ هَذِه الأَشْياء ؟

أجابَ أيمنُ بسُرعَة :

ــ صَنعَها الله سُبحانَه وتَعالى ، وَلكن ..

قاطَعهُ والِدُه :

ــ أرأيْتَ كيفَ تَسرَّعتَ فى لعْنِ الأمطار ، فكأنَّكَ بِلَعْنِها قد أخطأْتَ فى حقِّ صانِعِها ..

قال أيْمن :

ــ حاشَ لله أنْ أُخطِىءَ فى حَقِّه .. وسأَستَغفِرُهُ مِمّا قُلتُ وأنا غَضْبان ، .. فهلْ يغفِرُ الله لى يا أَبى ؟

قالَ والِدُه :

ــ إنَّ الله يا أيْمنُ غَفورٌ رَحيم ، لا سيَّما وَأنَّك لم تكن تعلم . فقد قال عَزَّ وجلَّ : (لا تَلْعَنُوا

الدَّهر ، فأَنا الدَّهر) ، واللّٰه سُبحانَه وتعالَى صانِعُ كلِّ شَيْءٍ وصاحِبُه ، فلا تلْعَنْ أىَّ شَىْء ، واستغفِر ربَّكَ دائِما ، فقدْ قال « ولا تلاعَنُوا » . والآنَ أَستودِعُكَ اللّٰه ، واحرِصْ علىَ العوْدةِ مُبكِّرًا إنْ شاءَ اللّٰه .

وخرجَ والِدُ أيْمَن ، وراحَ أيْمنُ يجمعُ حاجِياتِه ، ويستعِدُّ لِرِحْلتِه بينَ الحُقولِ والأَزهار .

٢

كانِت الشَّمسُ قدْ أشرَقت ، والأرْضُ قد جفَّت ، وكأنَّما السَّماءُ لَمْ تُمطِر ، كما كانَ يتمَنَّى أيْمَن .

وعادَ أيمنُ فى المَساء ، بعدَ أنْ تمتَّعَ معِ أصْدِقائِه برِحْلَةٍ سَعيدَة ، فوجدَ أباهُ فى انتِظارِهِ ، وسأَلَهُ هاشًّا باشًّا كعادَتِه :

ــ هلِ استَمتَعْتَ يا أيْمنُ برِحلَتِكَ معَ أصدِقائك ؟

قالَ أيْمن :

ـــ كلُّ الاسْتِمتاعِ يا أبى .. فقد قَضيْنا وقْتًا جَميلًا حقّا ..

قالَ الوالِد :

ـــ وماذا فَعلْتُم لتستَمتِعوا ؟

قال أيْمن :

ـــ لعِبنا بينَ الأشْجار ، وقَطفْنا بعضَ الأزْهار ، ثمَّ سبَحنا فى حوْضِ الماءِ المُعَدِّ للسِّباحَة ، فى مَشتَلِ القَرْيَة .

قالَ والدُ أيمن :

ـــ أنتَ تُحبُّ السِّباحةَ يا أيمَن . أليسَ كذلِك ؟

أجابَ أيْمنُ ضاحِكا :

ـــ طبْعًا يا أبى .. ومَنْ مِنّا لا يُحبُّ السِّباحة ، وخاصَّةً فى الصَّيْف . إنَّها مُتعةٌ وسَعادة ، لا سِيَّما

ومِياهُ الحَوضِ نَظيفَة ، ومُعدَّةٌ خِصيّصًا لِسِباحَةِ أهْلِ القَرْيَة .

تساءلَ الوالِد :

ـــ ومِنْ أينَ يَجيءُ الماءُ لِلحْوضِ يا تُرَى ؟

أجابَ أيْمَن :

ـــ يأْتِي بِهِ العُمّالُ منَ التُّرْعةِ الكبيرَة ، بعدَ تَعْقيمِه بالطَّبْع .

قالَ الوالِد :

ـــ ومنْ أينَ تأْتى التُّرعَةُ الكَبيرَة ؟

ـــ أجابَ أيمنُ مذْهوشًا :

ـــ منْ نهرِ النِّيلِ طبْعا .

قالَ الوالِد :

ـــ ومنْ أينَ يأْتى نهْرُ النِّيل ؟

أجابَ أيمنُ وقدْ زادتْ دهْشتُه :

ـــ يأْتِى من مَنابِعِـه فى الحَـبَشَة ، كمـا تعلَـمُ يا أبى .

قالَ الوالِد :

ـ وهلْ تأْتى مَنابِعُهُ فى الحَبَشةِ منْ فَراغ ، أوْ أنَّ هناكَ مَصْدَرًا يُمدُّها بِالماء ، الَّذى تُمِدُّ به نهْرَ النِّيل ؟

أجابَ أيْمن :

ـ إنَّها تأْتى منَ السُّيول ، الَّتى تَنْحدِرُ علىَ سُفوحِ الجِبال .

قالَ الوالِد :

ـــ وهَذهِ السُّيولُ ما هِىَ إلَّا أمْطارٌ غَزيرة ، كمَا لا بُدَّ أنْ تعلَم .. وماذا فعلْتُم بعدَ السِّباحَة ؟

قالَ أيْمَن :

ـــ كناَّ بالطَّبْعِ جَوْعَـى جِدّا ، بعـدَ اللَّـــعِبِ والسِّباحَة ، فجلَسْنا نتَناوَلُ طَعامَنا .

تساءلَ الوالِد :

ـــ وماذا كُنتَ أعدَدتَ لنَفسِكَ منَ الطَّعام ، يا أيْمَن ؟

ـــ قَدْرٌ مِنَ الكَعْك ، واللَّحْم ، والخُبْز ، والفاكِهَة .

وهُنا قالَ الوالِدُ وهُوَ يَضْحَك :

ـــ أرَى يا أيمَنُ أنَّ الأمْطارَ صَنعتْ لَكمْ أشْياءَ طَيِّبَةً كَثيرَة .

تساءلَ أيْمنُ في سذَاجة :

ـــ أيَّةُ أمْطارٍ يا أَبي ؟ هذهِ الأشْياءُ صنَعتْها لي أُمِّي ، ولا شأْنَ لِلأَمطارِ بِها منْ قَرِيبٍ أوْ بَعيد .

قالَ الوالِد :

ـ ولَكِنِّي أَرَى عكْسَ ذلكَ يا أيْمَن . فالأمْطارُ لَها بِها شأْنٌ كَبير . فلوْلَا الأَمطارُ ما كانَ نْهرُ النِّيل ،

الَّذى يُمِدُّنا بِالماء .. ولَوْلا الماءُ ما كانَ القَمْحُ الَّذى يُؤْخَذُ مِنهُ الدَّقيقُ الَّذى صنعتْ أُمُّكَ مِنه الخُبْزَ والكَعْك ، وأنتَ تعلَمُ طبْعًا أنَّ القمْحَ ينبُتُ فى الحُقول ، والحُقولُ تُروَى بِالماء .

قالَ أيمَنُ مُكمِلًا كلامَ والِدِه :

ــ والماءُ يأتى منَ الأمْطار . ألَيْس كَذلِكَ يا أبى ؟

لقدْ فهِمتُ الآن .

قال الوالِد :

ــ عَظيمٌ جدّا ! والآنَ أجِبْ عنْ سُؤالى هَذا : ماذا يحدُثُ لِلأبْقارِ والأغْنامِ الَّتى نأكُلُ لُحومَها ، إذا لمْ تَشربِ الماء ؟

أجابَ أيمنُ على الفَوْر :

ــ تموتُ مِنَ العَطش طَبْعا .

قال الوالِد :

ـــ وهَكـذا لَوْلا الأمْطـارُ لمـا كـانَتِ الأَبْقــارُ والأَغْنام ، ولما كانَ اللَّحمُ الشَّهِيُّ الَّذى نَأكُله .

قالَ أيمن :

ـــ ولما كُنَّا أحْياءَ حتَّـى الآن ، فنحـنُ كذلِكَ نحتـاجُ إلَـى ماءِ الأَمطـارِ لِنشْرب . ألـيْسَ كذلِكَ يا أَبى ؟

أجابَ الوالِد :

ـــ نعَمْ ، فثُلُثا أجْسامِنا ماء . وصدَقَ اللهُ العَظيم إذْ يقول : « وجَعلْنا مِن الماءِ كُلَّ شىْء حَىّ » فمن ماءِ الأمْطارِ شَرابُنا وطَعامُنا و كِساؤُنا وكلُّ حَياتِنا ..

قالَ أيْمَنُ ضاحِكا :

ـــ كمْ كنتُ ساذَجًـا يا أَبـى لَمَّـا ضِقْتُ بِالأَمْطار .. إنَّنى أُستَغفِرُ الله ، وأَحمَدُهُ حَمْدًا كَثيرًا

علىَ نِعْمةِ الأَمْطار ، وأَتَمنَّى أنْ تنزِلَ كماَ قدَّرَ لَها اللّٰه .

قالَ الوالِد :

ـــ نعَمْ يا وَلَدى .. كمَا قدَّرَ الله . فلَوْ أنَّها هطَلتْ بِاستِمرارٍ ولَمْ تنْقَطِعْ أبدا لأهْلكتْ كلَّ شَىْءٍ حَىّ ، فالشَّىءُ إذا زادَ عنْ حَدِّه ، انقَلبَ إلىَ ضِدِّه ، وهَكذَا إذَا أرادَ الله أنْ يُهلِكَ قومًا فإمَّا أنْ يمنَعَ عنْهُمُ الأَمْطارَ تماما ، وإمَّا أنْ يُنْزِلَها علَيْهِم سُيولًا مُستَمِرَّة ، فتُهلِكُ كلَّ شَىْءٍ حَىّ . وصدَقَ الله العَظيم إذْ يَقول : « وكلَّ شَىءٍ خلقْناهُ بقَدَر » .

ـــ قالَ أيْمن :

ـــ وهَذا يُفسِّرُ أنَّ بعْضَ الصِّحابِ يَصْنَعُونَ أشْياءَ لا نرْضَى عَنْها فى وقتِها ، بيْنما هِىَ فى الحَقيقةِ أشْياءُ حَسَنة ، لا نَعلَمُ قيمتَها إلَّا بعْدَ فواتِ الأوان .

قال الوالِد :

ـــ وَهكذا الأمْطارُ يا وَلَدى ، قدْ تُفسِدُ عليكَ رِحلَةً فى بعضِ الأحْيان ، بلْ إنَّها قدْ تضُرُّ بعْضَ النَّاسِ ضَرَرًا كَبيرا ، فى سَبيلِ أنْ تُسعِدَ البَشَرِيَّةَ جَمْعاء .

قال أيْمن :

ـــ عَليْنا إذَن يا أبى أنْ نُفكِّرَ فى الحَسَنِ قبلَ الْقَبيح ، وفى النَّافِعِ قبلَ الضَّار .

وهكَذا عَرَف أيْمَن ، كما عَرَفنا جَميعا ، فوائِدَ الأمْطار . ونحْنُ نَحْمدُ الله فى كُلِّ آن ، عَلَى حِكْمَتِهِ فى إنْزالِ الأمْطار .